بسم الله الرحمن الرحيم

لحظات مع علي الوردي في خمسة مقالات

للدكتور عبدالرزاق محيي الدين

[الوصف]

[هذا ملخص لمقالات كتبها الأستاذ الدكتور عبدالرزاق أمان محيي الدين (1910 – 1983)، أستاذ الأدب العربي، رداً على حملة كان أقامها الدكتور علي حسين الوردي (1913 – 1995)، أستاذ علم الاجتماع، على الأدب العربي في مقالات نشرها في الصحف العراقية، وفي بعض مؤلفاته في الاجتماع. يشير الدكتور محيي الدين بداءة إلى منفعة الحملة في إذكاء جذوة التفكير والتعبير والكتابة، ثم يلخص محاور تهجم الدكتور الوردي على الأدب العربي واللغة العربية ليرد عليها واحدة واحدة في أسلوب هادئ لطيف. فنَّدها مبرهناً على أن علم الدكتور الوردي في هذا المجال ضحل، وأن خوضه في هذا البحر كان من غير زاد.]

[إذا أعجبك العمل، فلا نطمع في غير دعاء بالأجر والثواب لنا وللمؤلف رحمه الله تعالى.]

انقر هنا للاستماع والمشاهدة - قراءة د. عياد دربال

انتقل إلى الصفحة التالية لقراءة الملخص.

ملخص المقالات:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

يثير الدكتور الفاضل، علي الوردي، بين آونةٍ وأخرى مشاكلَ أدبيةً مختلفةً ينشرها في الصحف المحلية، أو يستطردُ لها أثناء مؤلفاته في الاجتماع، وليس من شكٍ أن له فضلًا كبيرًا في هذه الإثارة، التي دفعت بجمهورٍ من الناس إلى القراءة، وحملت شطرًا كبيرًا منهم على إعادة النظر فيما رسخ في ذهنه من عقائد، وفيما أَلِفَه من عادات ومصطلحات. وساقت عددًا غيرَ قليلٍ من الكُتَّاب والمؤلفين إلى مراجعته ومنازلته في ميادينِ الصحفِ والمجلات. الحركةُ بركةٌ على كل حال، والدفعُ بالعقول إلى التفكير، وبالألسنة إلى التعبير، وبالأقلام إلى الكتابة؛ خدمةٌ مُثلى ينبغي أن تُقابَل بالحمد والتقدير.

ولكنَّ مشاكل الدكتور في الآونة الأخيرة انصبّت بشكل حملاتٍ على الأدب والآداب، واللُّغة واللُّغويين، وعلى تاريخ العربِ والمسلمين، ونقد أغلب المخلفاتِ الاجتماعية في إلحاحٍ وحماسةٍ شديدين، وفي تعميمٍ قد يتجاوز به حدودَ القصد، وفضوليةٍ قد تزُجُ به فيما لا يَحسُنُ بمثله أن ينساقَ إليها، مادام يريد لنفسه ونريد له صفة العالِمِ المحققِ، والدارسِ الذي يعني ما يقول.

ويمكن تلخيص ما انطبع بذهني من مقالاته بما سيأتي:

أولًا: دعوتُه إلى تيسير لغة الكتابة وتسهيلها، واقتراح بعض الحلول.

ثانيًا: وصمُه أدباءَ العربيةِ وشعراءَهم، خاصة، بالسير في ركاب الظالمين، والتغني بمدائح العُتاةِ المتجبرين، ثم الدعوةُ إلى رفض هذا الأدب بجملته، وتزهيدُ شأنه وتحقيرُه في عيون الناس.

ثالثًا: عرضُ صور من تاريخنا دون أخرى، والتعقيبُ عليها بما يحمل على تشويهه بجملته.

ففيما يتصل بالدعوة الأولى، وهي التي تنادي بضرورة وضوح الكتابة وتبسيطها وتقريبها من ذهن القارئ، نقول للدكتور الفاضل: هذه الدعوة ليس بدعًا جديدًا تظهر به على الناس أنت وحدك، ولا جيلك وحده، فليس لك جديدٌ تقوله للناس لتبلغ بك الحماسة والانتفاضة إلى هذا الحد، ولتبرر لك هذا الاندفاع المتكلَّف، من وراء فكرة هي من أبجديات العربية!

إن كل من قرأ كتبَ البلاغة وافتتح أولى صفحاتِها، واجه كلاماً يدعو إلى الإفصاح والإبانة والظهور، وشهد تحديداً للكلام الفصيح بأنه الخالي من غريب اللغة في مفرداته، والعاري من التعقيد في تراكيبه، الخالص من الاستكراه والثقل، ومن كل ما يفوت على السامع والقارئ تيسير الفهم، وسهولة الإدراك، وتقريب المعنى للذهن. فهل في دعوى الدكتور شيءٌ غير الذي قاله البلاغيون قبل ألف عام؟! وهل لديه في أمر المفردات أكثر من المطالبة بشيوع الكلمات ووضوح معناها؟! وصوغها على الهيئة المعروفة المتداولة؟!

كما أن من أبجديات البلاغة العربية، ومن المأخوذ في صلب بلاغة الكلام، أن يكون الكلام مطابقاً لإدراك السامع، مناسباً لحالته، مسايراً لقابليته الثقافية؛ بحيث جعلوا لكل مقامٍ مقالاً، ولكل حالٍ تعبيراً، حتى وصلوا في مراعاة أحوال القارئين والسامعين، إلى أن جعلوا من حق البلداء والجاهلين على ذوي الأقلام أن يكتبوا لهم باللغةِ التي يفهمونها، وبالأسلوب الذي يستجيبون له، ويتأثرون به، على شريطةِ سلامة التعبير.

فهل لدى الدكتور دعوةٌ أوسعُ مدى في الإنصاف بالجهلةِ الأميين، من هذا الذي دعا إليه كُتَّابُ البلاغة العربية، حين قدَّروا لمختلَفِ الناس حظوظًا من البلاغة، وحين رأوا أن من مخالفات البلاغة أن تواجه الناسَ بما لا يدركون، وأن تخاطبهم بما لا يشعرون، وبما لا يصل إلى نفوسهم ودقائق مشاعرهم؟ فما الذي يدعو إليه الدكتور الوردي؟ ولِمَ هذه الحماسة في التهجم على العبارات العربية؟!

إني شهدت الدكتور في بعض مقالاته ،التي نشرتها له جريدةُ (الحريةُ) الغرَّاء، ينعي على الناس أمرَ العناية بالمعاني والبيان والبديع، مازجاً بين هذه الفنونِ الثلاثةِ في عبارة واحدة، فهل يعرفُ الدكتورُ الفاضلُ مؤدَّياتِ هذه المفرداتِ بالضبط والتحديد؟ وهل يدري ماذا تعني كل كلمة منها حتى يصحَّ له الجمع بينها، فضلًا عن التهجم عليها؟!

أحسبُ أن الدكتور أكثرُ إنصافاً من أن يستمرَّ على جمعه بين هذه الفنون في التنديد بها، والنعي عليها، حين يستقيمَ له معرفةُ مداليلِ هذه الكلمات.

إن الدكتور الوردي إذ ينكرُ أثرَ علم المعاني، كمن ينكر أثر الهندسة في البناء؛ فيدعو إلى الاستغناءِ عن فن الهندسة بدعوى أن الإنسانَ حفر كهوفَهُ قبل أن يعرف هذا العلم، وأن النحلَ يبني خلاياه بمحض الفطرة.

إن علمَ المعاني هو الذي يتكفَّلُ بدراسة الظواهر التعبيرية عند الإنسان، تلك الظواهرُ التي تكشفُ عن كيفيةِ بناءِ الأفكار في نفسه، قبل أن تتقمَّصها الألفاظ، فليس الاستنهانةُ بأمر علم المعاني إلا استهانةٌ بالضوابط الذهنية لدى الإنسان، فهل يرضى الدكتور لنفسه أن يدعو إلى نبذِ دراسة الضوابطِ الذهنيةِ لدى ناقدي الآثار التعبيرية؟ يخيل إليَّ أن كثيراً من الأحكام المرسلة في غيرِ ضابط، ما كانت تُرْسَل هذا الإرسال لو صادفت دقةً في التعبير بعد دقةِ التفكير.

وفي ما يتصل بعلم البيان، فما الذي ينعي الدكتور عليه؟ إنه أيضاً دراسةٌ للظواهر التعبيرية للإنسان، حين يريد أن يعبَّر عن معنىً من المعاني. فقد يسلك للمعنى سبيلَ الحقيقة، أو يسلك له سبيلَ المجاز، على اختلاف أنواعه. ولا توجد لغةٌ في الدنيا كان لها بعض مظاهر الرقي إلا وجدت فيها هذه الظواهرُ التعبيرية. وهذه اللهجات العامية من فروع العربية حافلةٌ بأنواع البيان. فما الذي ينعي عليه الدكتور من أمر هذه الدراسة؟ وأنا أؤكد للدكتور بأن كتاباتِه حافلة بأنواع البيان المختلفة، وأنه لا خلاص لأي معبر من اللجوء لبعضِ الظواهر التعبيرية. فالجهل بأصول البيان لا يعني التخلص من البيان ومن أحابيلِهِ. فليطمئن الدكتور إلى أنه واقعٌ في المصيدةِ على كل حال. ولكن غفلته عن هذه الأحابيل، التي تشد أطرافه، خَيَّلت له أنه حرٌّ يتصرف كما يريد! لذلك رأيناه يدعو إلى التحرر من معرفة البيان لا من البيان نفسه. وكلُّ الفرقِ بينه وبين عارفي فن البيان أنهم يسلكون إلى التعبير عن بينةٍ ومعرفة، وهو يسلك إليه (عليك يا الله).

أما الأمر في البديع فنعيُ الدكتور عليه موفَّقٌ إلى حدٍّ بعيد. ولكنه نعيٌ سُبِقَ إليه من قديمِ الزمان. وحسبه أن يقرأ ما يشاء من كتب البلاغة؛ ليشهد رأي الناس فيه، وفي المقدارِ المقبول منه.

ونحن نسأل الدكتور: أين تجد الغموض والإبهام في الكتابات المعاصرة، وهذه الجرائدُ العربيةُ، والمجلاتُ والكتبُ الأدبيةُ، منذ خمسين عاماً تُحَرَّرُ الموضوعات المختلفة فيها بلغةٍ سهلة، وبعبارةٍ واضحة،

وبتراكيبَ ميسرة، لم يشْكُ أحدٌ فيها غموضاً أو عُسراً؟ ولم تستعصَ على القارئ، إذا كان متوسط الثقافة؟

لعل الدكتور يريد بالتيسير؛ التسهلَ، والترخصَ، والبلوغَ بالكلامِ حدَّ العامية الدارجة، حتى يعود في متناولِ من لم يُحْسِن الفصحى في قليل أو كثير. وهذا أيضاً ليسَ برأيٍ جديد، ولكن الدعوةَ به وُئِدَت في مكانها، وأُجهِزَ عليها بيدِ أبنائها، لما انكشف لهم مساوئُها وأخطارها على ثقافة أبناء هذه اللهجات نفسها.

ويطيب للدكتور أن يخلعَ على نفسهِ صفةَ الإصلاح والمصلحين للغة، فيدعو إلى إصلاحِ الإملاءِ العربي، ويطالبُ بكتابةِ اسم فاعل حكى، بالياء منقوطةً دائماً؛ خشيةَ الالتباسِ باسم فاعل حكَّ فهو حاكٌّ (بتشديد الكاف). ولست أبغي أن أدخل معه في جزئيات المسألة، لأني أخشى أن أُثقِل عليه وعلى القُرَّاء، ولكني أكتفي بالقول: إن صنيعَ الدكتور الفاضل لا يختلف عن صنيعِ من يقرأ كتاب الصحةِ للأحداث، فيعالجُ بمعلوماته من يخيلُ إليه أنهم مرضى، فيصف لهم ما يعُنُّ له من عقاقيرَ قد تجرُ عليهم الهلاكَ والموت، ثم يتركهم، في غير مبالاةٍ، لرحمةِ الأقدار.

وأكتفى له بإجمالِ القولِ في المسألة: إن الإملاءَ العربيَ لم يُرتجلِ ارتجالاً، ولم يوضَع إلا بعد تجارُبِ أجيال. وهو في جملةِ جزئياتهِ يخضعُ لفلسفةٍ في الكتابة تقوم في الأغلب على أساسين:

الأول: تجنبُ الخلطِ بين كتابةِ كلمةٍ وأُخرى، والتفريقُ ما أمكنَ بين الكلماتِ المتشابهة في النطق، إذا كانت مختلفة في المعاني؛

الثاني: التيسيرُ وإسقاطُ الفضول والزوائدِ ما أمكن الاستغناء عنها. فكلُ ما بين أيدينا من قواعدِ الرسم مبنيٌ على هذا الأساس. فهل يدري الدكتور الفاضل ماذا أرادوا حين قدَّروا حذف الياءِ والنقطتينِ من الاسم المنقوص، إذا قالوا بحذفها مرةً وإبقائها أُخرى؟ إنهم يحذفونها في حالةِ وقوعِ الاسم مرفوعاً أو مجروراً؛ لأنها لا تُنْطَق، ويُبقُونها في حالةِ النصب أو في تعريف الاسم المنقوص بأل؛ لأنها تُنْطَق. أما التباسُها بحاكّ ،اسم فاعل حكَّ، فأمرٌ من الرأفة بالدكتور عدم التعليق عليه.

الوردي وحديث الشعر:

يتحدث الدكتور الوردي عن الشعر بجرأةٍ وصرامةٍ ،شأنَ المتمكنِ من مادته، الواقفِ على فنون هذه الصناعة المعقدة، فلا يتهيَّب أن يُطْلِقَ عليها ما يشاء من أحكام، ويصفَها بما أراد من صفات، كأنه أحدُ أبنائها الأفذاذ، الذين يملكون وسيلةَ النقدِ ومعاييرَ التقديرِ. والذي نعرفه إلى الآن أن الدكتور باحثٌ اجتماعي، وأنه من أبعدِ الناسِ عن هذا الفن، ومن أقلِّهم خبرةً بأصولهِ ومعاييره؛ فمن حقي ومن حق الناس أن نختبرَهُ قبل أن نناقشَه. إنه مدعوٌّ إلى اختبارٍ شعريٍ عن طريقِ الإذاعة العراقية؛ فليُسْمِع الناس شيئاً من مختار شعره، ونبيلِ معانيهِ وأغراضِه؛ لنطمئن إلى أنه إذ يستصدر الأحكامَ على الشعرِ العربي، أهلٌ لهذه الأحكامِ، جديرٌ بمناقشة الأُدباء، بل هو مدعو إلى أقلَّ من هذا؛ مدعوٌّ إلى أن يُلقيَ عن طريقِ المذياع قصيدةً لأحد الشعراءِ الذين ينتقصهم ويزدريهم، أمثالِ المتنبي، والبُحتريّ، وأبي تمّام. فإن نجحَ في اختبارهِ هذا، وأرانا قدرةً على ممارسةِ هذه الصناعة، أو قدرةً على قراءةِ نصٍّ من نصوصها، أبَحْنا له حقَّ البحث في أمر الشعر، وعادَ من حقه على الناس وعلى الأُدباء، أن يشاركَ في الإدلاءِ برأي.

ولكني أستسلفُ حُكماً على ذمتي الوفاءُ بتبعته، أن الوردي سينكِصُ عن هذا الاختبار المدعوِّ إليه؛ لأنه لا يعرف من أمر الشعر إلا هذا اللغو المكرور كلما أراد أن يقول للناس عنه.

الوردي يتحدث عن الشعر العربي بجملته؛ فيصفُه بأنه شعرٌ يعتمد على الموسيقى اللفظية، وأن حظَّ المعاني منه جِدُّ قليل. وهذا كلامٌ يسهُلُ إطلاقُه على من يريد إرسالَ الكلام إرسالاً. ولكني أسأل الوردي عن هذه الموسيقى التي دخلت الشعر العربي فصادفته خالياً أو فقيراً إلى المعاني، أسأله من أين جاءت؟ أمن مفرداته، أم من تراكيبه، أم من أوزانه؟ إن كانت من المفردات؛ فليختر الورديُ عدداً من المفردات العربية التي يراها خاليةً من الموسيقى، وحاشدةً بالمعاني لنقِفَه على وجودها في الشعر العربي. أو فليختر عدداً من الكلماتِ التي تضعفُ فيها المعاني، وتقوى الموسيقى لنُسمعه منها شعراً عربياً ممتازاً، يحفل بأسمى المعاني والأغراض. وإن كانت الموسيقى في التراكيب، فليحدد لنا التراكيب التي تخلو من الجرس الموسيقي، والتي تعتمد على الجرس الموسيقي؛ لنَشهد ما إذا كان الشعرُ العربيُ خالياً من تراكيب الصنف الأول، ولابد مشتملاً على تراكيب الصنف الثاني. وإن كانت في الأوزان، فليُحدد الورديُ

الأوزانَ التي تُكسِبُ الشعر العربي جرساً من التي لا تُكسبهُ هذا الجرس؛ لنُطلعهُ على شعرٍ عربيٍ تجنبَ هذه الأوزان، واحتفظَ بروعة الشعرِ البالغِ في الجودة.

إن الشعرَ العربيَّ،كفنٍ، يختلفُ باختلاف قائله حظاً منه، فيه الحافلُ بالمعاني الكريمة، وبالآراء الصائبة، والهواجسِ الخفية، وفيه ما دون ذلك درجات، تصلُ في أدناها إلى الحالة التي وصفها به الدكتور. والحالُ فيها نظيرُ الحال في أي أثر يعتمد على ذاتية قائلهِ، وحظهِ من سلامةِ التفكيرِ والتعبير.

ينعت الدكتورُ الوردي الشعرَ العربيَّ بنعوتٍ تجدها متناثرةً في مقالاته؛ فهو عندهُ من حيثُ القِيَمُ بدويّ، ومن حيث الأغراضُ والبواعثُ استجدائيّ، يَجري كُلهُ أو جُلهُ في رِكابِ السُلطان، ينظم غزله لدغدغةِ عواطفُ الخلفاءِ والملوك، ومن يدنو منهم في جاهٍ أو سُلطان، ويُرادُ وصفهُ للترويحِ عن نفوس المترفين، ولتطيبَ أسمارُهم على موائدِ اللهوِ والطربِ والمجون، وتُحبرُ مدائحهُ تبريكاً للسادةِ في الغزو الظالِم، والإياب الغانِم. أما رثاؤه: فهو التوجع المصطنعُ، والتشاجي المكذوب في حسرةٍ على ما فات الشاعر من مغانمَ لو بقي المرثيُّ حياً، وعلى ما يَرجو من أهلهِ وقد بقوا أحياء، إلى ما يُشبهُ هذه النعوتَ التي إن لم ترد في نص ألفاظها، فهي تؤدي إليه.

ثم يشفعُ الدكتور الفاضلُ نعوتَه المارةَ بالدعوةِ إلى هجرِ هذا الشعر، والخروجِ عليه. ولابُدّ أنه يريدُ شعراً حضري القِيَم، شعبيَ الروح، يُعنى بشؤون العامةِ قبل الخاصةِ أو دونَ الخاصة، يتناولُ أحاسيسَ الطبقاتِ الفقيرة، ويتحدث عن آمال الشعوب في الحياة، في بواعثَ سامية الأغراض، كريمةِ الأهداف. ونحنُ نسألهُ عن هذهِ الدعوةِ التي يتصايحُ بها ويُروّجُ لها من هجرِ الشعر القديم والزهدِ فيه. أيريدُ الدكتورُ الفاضلُ هجرَ الشعرِ القديمِ بتركِ المتابعةِ له في إنشاءِ مثلِه، واحتذاءِ قوالبه، وذلك بالتجافي عن أغراضِهِ، والترفعِ عن بواعثه؟ أم يريدُ هجرهُ بترك النظر فيه في الدراساتِ الوصفية، وذلك بالإعراضِ عن دراسةِ أصولهِ ومصادرهِ وظروفه، وكلِ ما يتصلُ بتاريخِ أدبهِ، ويُعَرّفُ الناسَ به. إن كانَ يريدُ الأول، وهو ما يتناسبُ مع دعوةِ باحثٍ اجتماعيٍ يصطنع الإصلاح، فذلك يشهدُ على أن الأخ الفاضلَ يجهلُ ما أصابَ الشعرَ المعاصرَ من تطور، وما سرَت فيه من روح، وما داخله من تنوعٍ في البواعثِ والأغراض. يجهلُ هذا وهو بالقربُ منه، وتحتَ سمعهِ وبصرهِ، ولعلَ شطرَه مما يُنشر إلى جانب مقالاته. فكيف به من شعر بعيد عن متناوله، قليلِ المحاكاةِ في عصره، متباعدٍ عن زمانه ومكانه؟ فليسَ حالُه إلا حالُ

المنقطع عن الركب، المتخلفِ عن القافلة، يقبضُ عصا الرائد فيلوحُ بها من وراء القافلة؛ أن سيروا قُدُماً أيها المتخلفونَ المنقطعون!

إن دعوةَ الدكتورِ لنبذِ الشعر العربي القديم في محاكاةٍ ومتابعةٍ ليست بذاتِ موضوعٍ حتى تجدَ مكاناً للقبولِ ومجالاً للترويج.

أما إن أرادَ بدعواهُ في التنديدِ بقديمِ الشعرِ العربي صرفَ الناسِ عن مدارسته، و مراجعةِ أصوله، وتبيُّن خصائصه من قِبَلِ الباحث في مفرداتِ اللغة، والناقدِ لأساليبِ البيان، والمؤرخِ لعصورِ الأدب، والناظرِ في التاريخ الحضاريّ للأمة العربية، والباحثِ الاجتماعي الواصلِ بين مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، إلى غيرهم مما لم يعدَم ضرورةً أو فائدةً من مراجعته، إن كان يريد هذا، فما أعرف لهذه الدعوة مؤدًّىً ونتيجة، إلا قطعَ أسبابِ المعرفةِ عن الناس، وسدَّ مجاري البحث في وجوههم؛ بردم المنابع الأولى، وبالإجهاز على جُهد أمةٍ كان لجُهدها في التاريخ الحضاري، نصيبٌ ليس بالهين اليسير في أخس الظروف والاحتمالات. فحين بدأت هذه الأمة عهداً للتأليف، ووضعِ أصولِ العلوم اللسانية والعقلية، فزعَت إليه في تحريرِ قواعد تلك العلوم، تتلمس فيه المفردات الدقيقة، والمصطلح الموائي، وتستخرج منه التقليدَ الشائع، والعرفَ السائد، والأثرَ المطمور، والحدثَ المجهول. وحين استقر لها عرفانٌ بمذاهبِ الفلسفةِ وأسسِ علم الجدل والتصوف، لم تجد بُدّاً، وقد أعوزها الوصلُ والتوفيقُ بين ظواهر القرآن والسنة، وهذا الفكرِ الجديد الذي طالعها، من أن تفزع إلى الشعر؛ تستخرجُ منه الشاهد والدليل، والشبيه والنظير، إلى غير ذلك من مزايا أصابتها من دراستها ومعاودتها للشعر العربيّ القديم. وما كان للدكتور أن يُتحفَنا بهذه الطُرُف من سلسلة أفكاره، لولا رجوعُه إليه واعتمادُه عليه. فلماذا يُزهِّدُ الناس ويحاول صَرفهم عن شيءٍ بلغَ به، في غير اختصاصٍ وسابق دراسة، درجةَ أصحابِ المذاهب الأدبية في العصر الحديث؟ على حين لم يُوفَّق أو يجرَأ غيرُهُ من أصحاب الدراسات المركزة إلى مثل هذه الطُرُف المنقَّاة.

قيل لفيلسوفٍ مريض: ماذا تشتهي؟ قال: أن أشتهي. فلعل شهوةَ الكلام من شهوةِ الطعام!

وأما ما نعتَ به الشعر العربي من أنه بدوي القِيَم، استجدائي البواعث، وما إلى ذلك، فأقول: إن ما بين أيدينا من الشعر العربي مُعَمِّرٌ مُوغِلٌ في القِدَم. فالذي بين أيدينا من الشعر الجاهلي يشهدُ

بأن الجاهلية القريبة ليست عهدَ نشأتِه أو صِباه على كل حال، وأنه استمر منذ الجاهلية حتى اليوم يتقلبُ حياً وينتقلُ بين عهودٍ بدوية وحضرية، ويقال على ألسنة مختلفة الأرُمات والأنساب، وفئاتٍ متنوعةِ الثقافات والدراسات. وهو بهذا لم يَقصُر على السلالات العربية دون سواها، ولا على المجتمعات البدوية دون غيرها، وإنما انصبت في أوديتِه وشعابِه مختلفُ ثقافاتٍ وحضارات، اختارت العربية تُرجُماناً لما لديها من أخيلةٍ وأفكار. ولهذا، فإنَّ نعت الشعر العربي جميعِه بنعوت البداوة أو الحضارة في مختلفِ عصوره وأزمانه، ومختلفِ قائليه ومُجوّديه، يُعتَبَرُ مجازفةً تُعرّضُ صاحبَها إلى الخطأ في التقدير، وإلى مجافاةِ القصدِ في الأحكام.

إن الشعرَ استعدادٌ يبدأ فطريًا من غير باعثٍ أو مثيرٍ خارجي، ثم ينمو بفعل المؤثرات التي تلابسه من البيئة الاجتماعية، والتربية التعليمية، ولم تستأثر البواعثُ الخارجية في حفزِه وتوجيهِه، إلا بعد أن يبلُغَ صاحبُه نصاب الإنعام والإجادة، وهي مرحلةٌ متأخرةٌ فيها لا يبلغها الشاعر إلا بعد فترةٍ مديدةٍ من الحياة. يظل على هذا وهو يعالج أمر الشعر ويعاني قرضَه، حتى إذا استوت له بواعث القول من حب يسوقه إلى الغَزَل، أو ضيق يُلجئُه إلى التكسُّب بالمدح، أو مناسبة تضطره إلى الهجو، تغزَّل ومدح وهجا. وهو حتى في هذا الطَّور يظلُّ خاضعًا بالدرجة الأولى إلى الشهوة الفنية، ذات الحافز الداخلي، وإلى كسبِ الشهرة أكثر من كسبِ المال. ومتى خبِرنا نفوسَ الشعراء وداخلنا بواطنهم، ولابد من ذلك في كل حُكم يُستصدر عليهم، ألفينا أنها تطرب لقول: (أحسنت وأجدت)، أكثرَ مما تطرب للبدر تُنثَر عليها والهدايا تقدم لها.

بهذه البواعثِ الفنيةِ كان يُنظَم الشعر، ومن هذه الزاوية كان الناس ينظرون إليه. وإن البدعة الجديدة الذاهبة إلى أن الشعراء أصحابُ مذاهب وعقائد، وأنهم دعاةُ رسالة في الحياة غيرَ تلك الرسالة الفنية، من خرافات الدراسات المحدَثة، ومن شائعات هذا الجيل، قرأها الدارسون عن شعراء الأمم الأخرى، ونقلوها إلى شعراء العربية، وأرادوها للشعراء المعاصرين؛ فقدَّروا مِثلها للشعراء المتقدمين. ولست أقصدُ أن أنفيَ عن الشعراء القدماء صفةَ حملة الرسالة والرأي، عدا الرسالة الفنية، أن أُجَرِّدَهم عن رأيٍ يعتقدونه أو مسلكٍ ينتهجونه في الحياة؛ إذ من شبيه المحال أن تتجرد نفسٌ عن رأي، وسيرة عن مسلك. ولكني أقصد أنهم إذ يُلابِسون الصفة الفنية، يتجاوزون كثيرًا من عقائدهم ومسالكهم،

ويتحللون من روابطهم وأواصرهم، إلى ما تقتضيه طبيعة الشعر من فناء الذاتية، وانمِحاء الشخصية، لتقوم مقامها الشخصية الفنية في استيلاء طاغٍ على سائر الجوانب.

ولو أن الدكتورَ الورديَّ سمَّى القيم البدوية بأسمائها، وأرشد إلى مكانها من الشعر العربي، وصوَّر مدى طغيانِها عليه، لاتفقنا معه، أو طلعنا عليه بنقائضها، وأريناه القيم الحضرية يزخر بها الشعر العربي. ولذلك، فهو مدعوٌّ إلى أن يذكر لنا عَشْراً من القيم البدوية، وأرجو أن يفرّق بين المعاني البدوية، والقيم البدوية، فإنهما ليسا شيئاً واحداً؛ لنُقرِئهُ أضعافها من القيم الحضرية، وسنترك له، تسهيلًا لمهمته وتمكينًا له من تحقيق دعواه، أن يختار العهد الجاهلي؛ إذ أنه أحفلُ العصور، عادةً، بالقيم البدوية. وقد يكون بإمكاننا أن ندله على مواطن القيم البدوية والحضرية في الشعر الجاهلي. ولكننا نُفَضِّل أن نُذِيقه عذاب الفحصِ والتحرّي؛ حتى يتورَّع عن إرسالِ الأحكام مرةً أخرى.

وبعدُ، فهذه جملةُ ملاحظات تعتبر مبادئَ أولى لابُدَّ منها للدارسِ الاجتماعي والنفسي والتاريخي. ولابُدَّ قبلها من تفَهُّمٍ أصيل لروح هذه الصناعة، وإلا ضلَّت به الطريق وخبَطَ ،كما يقول المثل، "خبط عشواء".

وليثق الدكتور الأخ بأن ما وجَّهْتُ إليه من مآخذَ لم يُزوِّغني وجوهَ الخير والحق في شطر من آرائه الاجتماعية، فقد كنتُ أحدَ المنتفعين بها. كما أني ما تشهَّيتُ مُطارحتَه أو سعيتُ إليها رغبةً في الجدل نفسِه والمطارحة ذاتها. وإنما رأيت منه إلحافاً في أمورٍ أدبية ظل يرددها، بمناسبة وبدونها، ويتَّكِئُ عليها كلما حاول الإغراب والإثارة، واجداً في لَغَط السُذَّج، والبعيدين عن البحوث الجدّية، مطمعًا يغريه بالاستزادة والتكثر.

لقد أردتُ أن أحميَه من إغراءٍ دفعَه إليه سذاجةُ بعض القارئين، وأحميَهم من عبثٍ أُولِعَ به رجلٌ، ما كنتُ أريد له العبث.

انتهى بحمد الله

رمضان 1441 هـ.